النزعة الاستهلاكية و انعكاساتها الصحية و الاقتصادية في العالم المعاصر

الأستاذ :بن شريف بوعلام
جامعة الجزائر2

الملخّص:

إنّ من بين أهمّ الأزمات التي يتخبّط فيها الإنسان، والتي ينبغي التّطرّق لها بكلّ دقّة وصرامة في ظلّ حياتنا اليوميّة، بغية نفض الغبار عنها وفهم سرّ التّناقض الذي تتشكّل منه هي مشكلة التطوّر الصّناعي الذي تشهده الحضارة المعاصرة والتّغيّر التّكنولوجي من حين لآخر عبر خلق آلات جديدة تتمتّع بالجودة العاليّة الموظّفة من طرف المنظومة الاقتصاديّة الإداريّة والبيروقراطيّة من أجل تشييد عالم الوفرة والرّفاهيّة الذي تغمره النّزعة الاستهلاكيّة المؤدّية إلى انتشار ما يمكن تسميّته بألينة الإنسان واختزال نشاطه في عمليّة مراقبة سير حركات هذه الآلات والمكينات ضّخمة التي تنتج له مجموعة من المصنوعات الجميلة والغريبة المتمثّلة في المأكولات المتنوّعة والملوّنة والألبسة الباهظة الثّمن التي تكتسي بعدًا جماليًّا من جهة، وأداتيًّا من جهة أخرى، بحيث لجأت الشّركات الاحتكاريّة الصّناعيّة الغربيّة في عالمنا المعاصر لانتهاج سياسة تصديرها بغية فرض الهيمنة وتعميق السّيطرة التي تشمل على الحياة البيولوجيّة والإنسان بصفة عامّة.

والغريب في الأمر هو أنّ هذا التطوّر الخلاّق قد تمّ توظيفه بغية تكذيب حقائق ومضامين إنسانيّة الإنسان، كما تمّ استعماله في طمس هويّة الإنسان وتزييف القيم الدّينيّة وتشكيل نوع من التّفكير الذي يسير في خطّ مستقيم مع منطق الغرب. وممّا تجدر الإشارة إليه في ذات الاتّجاه، هو أنّ المنظومة الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسّياسيّة المعاصرة قد ربطت الإنسان بالسّلعة الغريبة والجميلة التي تنتجها ربطًا غريزيًّا فأصبح يستهلك مختلف الأطعمة الملوّنة استهلاكًا عشوائيًّا إلى الدّرجة التي أدّى فيها هذا الاستهلاك الغير منظّم إلى ظهور الأمراض المزمنة لم يكن يعرفها الإنسان من قبل،

كارتفاع نسبة الإصابات بداء السّكّري، وضغط الدّم، وانتشار مرض البدانة نظرًا لارتفاع نسبة الكوليستيرول في الأوعية الدّمويّة الذي يعيق النّشاط الحيوي للدّورة الدّمويّة، إذ يمكن القول بأنّه نتج عن الإكثار في تناول المأكولات المعلّبة التي تحتوي على نسب مؤويّة زائدة وعاليّة من الدّهون والزّيوت الغير الطّبيعيّة نظرًا لنكهتها اللّذيذة التي تخلق شهيّة طيّبة أثناء استهلاكها والتي جعلت منها تكتسب بعدٌ استقطابيٌّ يجلب أكبر عدد ممكن من المستهلكين لاقتنائها. إنّ انتشار هذه الأوبئة المضرّة بصحّة الإنسان جعلنا نلفت انتباهنا للتّفكير في ضرورة الحدّ منها عن طريق إيجاد حلولا مناسبة لذلك.

Résumé :

Cet article porte une tentative qui met au clair l'une des plus sérieuses contradictions qui a chamboulée les sociétés industrielles avancées dans le monde moderne où l'homme est dominé par le spectre de la consommation et actualisé dans le système administratif– bureaucratique qui reflet le stade suprême du l'organisation capitaliste économique et politique.

A travers cet article qui s'inscrit dans la perspective qui explique la nature du phénomène de consommation dans la civilisation de l'abondance, je souhaiterais dévoiler les conséquences malheureuses et pénibles engendré par ce phénomène, comme les maladies chroniques, notamment, l'arrêt cardiaque, le diabète, l'obésité qui provoque le cholestérol, et de démontrer les causes qui ont engloutit et dévorer les valeurs humaines. Outre, j'ai proposé des solutions qui peuvent dépasser ce genre de troubles physiologiques et psychologiques.

1- تحديد الموضوع:

ينصبّ موضوع دراستنا هذه على انعكاسات نمط الحياة المعاصر في صحّة الإنسان والحياة الاقتصاديّة في نفس الوقت، كما يرتبط ارتباطًا وثيقًا بطبيعة القيم السّائدة في ظلّ العالم المعاصر، بحكم أنّ التّطوّرات الصّناعيّة والتّكنولوجيّة الجميلة والعجيبة قد لعبت دورًا فعّالاً في خلق إنسان جديد يتميّز بسمة الاستهلاك، وهو الإنسان الذي أصبح يفتقد قيمه المتعدّدة وسقط في العالم المنغلق وتحوّل فيه إلى إنسان ذو بعد واحد

يجد ماهيّته في المصنوعات الموفّرة له والتي تسهم بشكل كبير في تزييف وتكذيب الحقائق الإنسانيّة عن طريق خلق الحاجة للاستهلاك عوض أن تسدّ حاجات ورغبات الإنسان، وفضلا عن ذلك أمست تخلق الحاجة للاستهلاك اللاّعقلاني الذي ترتبت عنه العديد من الأمراض المزمنة التي تعدّ في عالمنا المعاصر بمثابة الشّبح المخيف الذي ينخر صحّة الإنسان.

إنّ ما تجدر الإشارة إليه في هذا السّياق، هو أنّ للتّكنولوجيا أثر عميق في تفكيك الإنسان وتحويله إلى مستهلك بتغيير نمط الحياة، كون أنّ تطوّر الآلات والمكينات يعدّ العامل الرّئيسي الذي أحدث تغيّرًا ملحوظًا في نمط الحياة المعاصر. ومن ثمّ فقد "كان للتّكنولوجيا وللتّغيّر التّكنولوجي آثارًا عميقة ظهرت في شكل تغيّرات عديدة وجوهريّة في محيط الحياة الاجتماعيّة، الأمر الذي جعل موضوعات مثل دور التّكنولوجيا في التّغيير الاجتماعي، أو تغيّر العلاقات والقيم الإنسانيّة وكثير غيرها من الموضوعات التي استرعت أنظار كثير من الباحثين وحظيت بقدر أوفر من اهتمامهم."[1]

ومن خلال هذا المنطلق وعلى أساسه، تمثّلت النّقاط الرّئيسيّة التي ينتصب عليها اهتمامنا في هذا البحث في أنّ الظّاهرة الشّائعة في العالم المعاصر بصفة عامة، والتي أحكمت قبضتها في حياتنا اليوميّة وأصبحت تحدّد طبيعة ميولنا وحجاتنا البيولوجيّة ورغبتنا في اقتناء مختلف المصنوعات التي تكتسي طابعًا سحريًّا جعل منها محورًا تأسيسيًّا للوجود الإنساني، هي النّزعة الاستهلاكيّة المستفحلة في ظل عالم الوفرة الذي يسود فيه الطّابع العقلاني للاّعقلانيّة، أي وسط المحيط الذي أسهمت فيه ظاهرة التغيّر التكنولوجي و وسائل الإنتاج إلى خلق آليّات جديدة للسّيطرة على الإنسان، وإن شئنا لقلنا أنّها أصبحت تعكس أزمة صحّيّة تتّضح لنا أهمّ أعراضها الخبيثة في الأمراض المزمنة التي تهدّد حياة الإنسان بالفناء، مثل الأمراض التّنفّسيّة التي يسبّبها التّلوّث البيئي ومرض البدانة، وأمراض القلب والأمراض المعدّيّة وسرطان الدّم والسّكري والضّغط الدّموي، من جهة، وأزمة أخرى ذات طابع اقتصادي – اجتماعي تتلخّص في شبح البطالة

[1] - السّيد عبد العاطي السّيد، **التّصنيع والمجتمع. دراسة تطبيقيّة في علم الاجتماع الصّناعي**، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، 1996، ص: 34.

الذي ينجر عن استبدال العامل بالآلات والمكينات الضّخمة. إنّ هذه التناقضات الصّحيّة والاقتصاديّة جوهريّة من حيث طبيعتها، وبالتّالي، تعدّ بمثابة العامل الرّئيسي الذي أدّى بنا لاختيار هذا الموضوع من أجل أن نميط اللّثام ونكشف حقيقة الإنسان المعاصر وأصل الأمراض المزمنة التي يعاني منها.

2- تحديد الإشكاليّة:

وفق هذا الطّرح تنتصب أمامنا الإشكاليّة الآتية نصّها:

إذا كانت المنظومة الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسّياسيّة التي تتألّف من نمط الحياة الذي يترتّب عن القوى المنتجة أو الآلات والأدوات التي هي في تطوّر وتحسّن مستمر عبر التّاريخ، وعلاقات الإنتاج التي قد تعبّر عن الاستغلال أو العدالة الاجتماعيّة، قد حقّقت نقلة نوعيّة من حالة النّدرة إلى حالة الوفرة، وبالتّالي، فهل يمكن القول بأنّ التطوّر التّكنولوجي والصّناعي وما صاحبه من تغيّرات على الصّعيد الاقتصادي والصّعيد الاجتماعي قد أسّس دعائم عالم الإنعتاق حيث يتحرّر الإنسان من قبضة الحتميّة الطّبيعيّة والحتميّة الاجتماعيّة والحتميّة البيولوجيّة، أم أنّ ما حدث هو العكس تمامًا من ذلك بحيث تمّ تعميق السيطرة على الإنسان ومضاعفة همومه؟ وبوجيز العبارة، إذا كان الإنسان المعاصر يعيش في مناخ من الرّفاهيّة والرّخاء، فإلى أيّ مدى استطاع أن يستفيد من المصنوعات الجميلة والعجيبة التي يوفّرها الجهاز الإنتاجي بشكل وفير؟ ألا يكن القول بأنّها تحوّلت إلى ضدّها وتسبّبت في ظهور العديد من الأمراض المزمنة المهدّدة لكيان الإنسان، وأنّها تعدّ بمثابة العامل الجوهري الذي تسبّب في نشوء بعض التّناقضات التي تكتسي طابعًا اقتصاديًّا واجتماعيًّا؟

***انعكاسات التّطوّر الصّناعي والتّكنولوجي الاجتماعيّة والاقتصاديّة:**

في الحقيقة، إنّ للتطوّر الصّناعي والتّكنولوجي المعاصر انعكاسات سلبيّة تهدّد صحّة الإنسان من جهة، والمجال الاقتصادي من جهة أخرى. ولا ريب في أنّ ذلك راجع بشكل رئيسي إلى التّغيّر السّريع الذي طرأ على مستوى الحياة البشريّة في شتى المجالات، أي التّغيّر الذي حدث في الحقبة المعاصرة في نمط المعيشة في كلّ أنحاء العالم، والذي رسّخ

في نفوس النّاس نوع جديد من السّلوكيّات اللاّأخلاقيّة والغير الصّحيّة والعادات الغذائيّة الغير السّليمة التي تعتمد، إن جاز القول، على المأكولات السّريعة والمعلّبات الغذائيّة الفقيرة من نسبة الحريرات الطّبيعيّة التي تزوّد جسم الإنسان بالطاقة والقوّة البدنيّة وتقيه من الأمراض المزمنة بما فيها سرطان القلب وضغط الدّم وداء السّكّري، والتي هي ضروريّة للتّقليل من نسبة انتشار هذا الصّنف من الأوبئة الخبيثة ومنع حدوثها والوقاية من الإصابة بمختلف الإعاقات النّفسيّة والجسميّة التي تنجم عنها.

ولعلّ ما تجدر إليه الإشارة في ذات الاتّجاه، هو أنّ العالم الذي كان تفكيره منصبّ في خدمة البشريّة قد تحوّل اهتمامه إلى ضدّه وأصبح يكتسي طابعًا لا إنسانيًّا من حيث أنّه أصبح يسخّر التّقنيّة المعاصرة لفرض رؤية تدميريّة تفكّك علاقات الإنسان مع وجوده الخاص وتلغي مضامين ومعاني العلاقات الحميميّة التي تجمعه وأقرانه. وإن شئنا لقلنا في هذا السّياق بأنّ الحداثة التي سعت منذ القرن السّابع عشر مع (روني ديكارت) لتحتقيق ما يسمّى بريضنة الطّبيعة وتطهيرها، أضحت تؤدّي وظيفة مغايرة لما كانت عليه من قبل، باعتبارها قلبت الكوجيتو الدّيكارتي الذي مؤدّاه «أنا أفكّر، أنا موجود» إلى كوجيتو الاستهلاك «أنا أستهلك، أنا موجود»، وبالتّالي، أصبح الإنسان يستهلك أكثر مما يفكّر، وإن لم نقل أنّه يستهلك فقط، ولو دينارًا واحدًا في اليوم. وبالفعل، هذا هو المعنى الذي نعثر عليه في كلام ما نصّه الدّكتور (جورج زيناتي) كما يلي:

"كلّما زاد استهلاك الإنسان كلّما زادت سعادته، استهلك واصمت، يبدو أنّ هذا هو شعار التّكنولوجيا الحديثة. إذ ليس من غاية أخرى للحياة سوى زيادة القوى الشّرائيّة، أي كمّيّة الاستهلاك إلى درجة نستطيع أن نقول فيها بأنّ معدّل النّمو الاقتصادي أصبح المقياس الوحيد للحضارة [...]، وأنّه قد تمّ نقل الإنسان من ساحة الأنا إلى عالم الاستهلاك، وبالتّالي أصبح عبيد الرّغبات"[1] التي تسبّبت في نشوء
العديد من الأمراض المزمنة ومختلف التّناقضات الاقتصاديّة الاجتماعيّة.

[1] - جورج زيناتي، **رحلات داخل الفلسفة الغربيّة**، دار المنتخب العربي للدّراسات والنّشر والتّوزيع، بيروت، ط1، 1993، ص ص: 77، 78.

وممّا يجدر بالذّكر، أنّ هذا الاتّجاه الذي حذت حذوه المجتمعات المعاصرة قد جرّد الخطاب الميتافيزيقي من سؤال المعنى والكيف الذي يفسح له المجال للخوض في مجال القيم الإنسانيّة، وهيمن على الوجود الإنساني من خلال التّحكّم في الإنسان بواسطة الآلة وقوّة التّقنيّة الجبّارة. وبالتّحديد، هذا هو المعنى الذي يمكن أن نستشفّه من خلال كلام أحد كبار علماء الاجتماع والفلاسفة المعاصرين الذي يقول في هذا السّياق ما يلي:

"وجدنا أنفسنا أمام مظهر مزعج ومحزن تتّسم به الحضارة المعاصرة. إنّه الطّابع العقلاني للاّعقلانيّة الذي يتجلّى واضحًا من خلال طبيعة هذه الحضارة المنتجة والفعّالة التي بإمكانها تحقيق نمو وتكاثر واسع النّطاق [...]، والتي تتمتّع بالقدرة على تحويل ما هو مخرّب ومهدّم إلى بناء جميل وعجيب عبر تحويل عالم الأشياء إلى مجموعة الأشكال التي تحظى ببعد جمالي يجعل منها تستقطب الإنسان جسمًا وروحًا، بكيفيّة ليبيديّة، ليتعلّق بها [...]، بدليل أنّ إنسان الحضارة المعاصرة يتعرّف على طبيعته من خلال المصنوع الرّائع الجودة الموفّر له، ويعثر على ماهيّته الإنسيّة في جمال السّيّارة الفاخرة وفي طبيعة المنزل المريح ومعدّات الطّبخ المعاصرة."[1] و الأمر نفسه بالنّسبة للمرأة المعاصرة التي ترى جمالها في توظيفها لأحمر الشّفاه ومختلف أدوات التّجميل المصنوعة من طرف الجهاز الإنتاجي المعاصر الذي يتلخّص هدفه الرّئيسي في تشييئ العلاقات الإنسانيّة وإخضاعها لمنطق السّوق والحياة التّجاريّة.

والحقّ أنّ هذه الفكرة الأخيرة إن دلّت على شيء معيّن، فإنّما تدلّ على أنّ ما حدث في الحضارة المعاصرة المتقدّمة تكنولوجيًّا هو أنّ القوى المنتجة منصبّة على إقناع الإنسان بأنّ ما تفعله هو تحقيق لما يصبو إليه، بحيث تربطه بالواقع القائم ربطًا ليبيديًّا من خلال ما توفّر له هذه الأجهزة من زيف وكذب.أي أنّها تجعل منه كائنًا متعلّق بيولوجيًّا وغريزيًّا بالجهاز الصّناعي المسيطر، فضلاً عن ذلك، تغرس في نفسه نوع من الاعتقاد

[1] - Herbert Marcuse, **L'homme unidimensionnel. Essai sur la société industrielle avancée**, traduit de l'anglais par. Monique Wittig et l'auteur, Editions de minuit, Paris, 1968, P. 34.

بأنّه قد خلقه بمحض إرادته وأكثر من ذلك يحافظ على دوامه، في حين أنّه يعمل ويدافع على استمرار واستقرار آليّات جديدة للسّيطرة والهيمنة من دون الوعي بذلك.

وبهذا، أصبح الإنسان المعاصر خاضعًا في لعبة الاستهلاك المنظّمة من طرف النّظام، فضلاً عن ذلك يرغب في الخضوع لنسق النّظام الذي يهدّد قيمه الإنسانيّة بالفناء، من أجل استبدالها بمختلف الأمراض المزمنة النّفسيّة والفيزيولوجيّة والتّناقضات الاجتماعيّة والاقتصاديّة، وليس لتنظيم نمط الحياة "لأنّ التّصنيع في ظلّ العالم المتقدّم صناعيًّا ما هو إلاّ بآلة جهنّميّة تسير في طريق معاكس لما هو إنساني، أي في طريق التّحوّل ضدّ الإنسان نفسه وحلمه الحضاري. إنّه بالمعنى العميق للكلمة، يشوّه طبيعته، وبتشويهه له سيصبح كائنًا لا إنساني يفتقد لقيمه الرّوحيّة"[1]، بحكم أنّ الخيرات الموفّرة من طرف الجهاز الإنتاجي المعاصر والخدمات المفروضة علينا هي التي تحدّد، إن جاز القول، "طبيعة النّظام الاجتماعي الذي سيسود [...]. فوسائل النّقل، وتوزيع السّكنات، ووفرة الغذاء والرّداء، تمثّل أمامنا نوع جديد من الإنتاجيّة التي تفرض مع مرور الوقت مواقف وعادات تجعل المستهلك متعلّق بالمنتج، [...]، على الرّغم من كونها تشكّل وعيًا خاطئًا ومزيّفًا في عقول النّاس. أكثر من كلّ هذا، إنّها إذا كانت مفيدة ومقبولة من طرف نسبة كبيرة من الأفراد باختلاف انتماءاتهم العرقيّة وطبقاتهم الاجتماعيّة الأكثر اتّساعًا، فإنّ قيم الإشهار تسهم مساهمة فعّالة في إضفاء نمط جديد من الحياة حيث يتحوّل في ظلّها الفكر والسّلوك إلى الأداة التي تصنع عالم البعد الواحد."[2]

يتبيّن لنا من خلال هذا النّص، أنّه قد تمّت عمليّة ترشيد وتنميط الإنسان المعاصر، وذلك على أساس ما يستجيب بكيفيّة مباشرة لمتطلّبات النّظام المستتبّ. لهذا أصبح يفتقد لقيمه الإنسانيّة التي تحتلّ مقدّمتها فكرة العمل بوصفها المبدأ الإنساني التي أصبحت من العسير العثور عليها في مناخ التّنظيم الاقتصادي المعاصر الذي يبرمج

[1] - ف.بوريكو، ر.بورون، **المعجم النّقدي لعلم الاجتماع**، ترجمة سليم حدّاد، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، ط1، 1986، ص: 495.

[2] - Herbert Marcuse, Op.cit, PP. 36,37.

ويخطّط عمليّة انتشار شبح البطالة. إنّ مثل هذا التّناقض اللاّإنساني يجعلنا نثير السّؤال الآتي نصّه:

ما هي العوامل المساعدة على انتشار ظاهرة البطالة وسط عالم الرّفاهيّة والوفرة؟ ما هي العلاقة المتشعّبة الكامنة في إطار مجتمع ينتج الغنى من جهة والبطالة من جهة أخرى؟

في الحقيقة، إنّ النّظام الصّناعي على الرّغم ممّا يقال عليه أنّه "قد أتاح فرصة للعمل أمام الأفراد أوسع بكثير من نظم إنتاجيّة سابقة، إلاّ أنّه من الحقائق التي أكّدها التاريخ وتطوّر هذا النّظام، هو أنّ ظهور أنماط جديدة من الإنتاج إلى جانب ما ترتّب على التّغيّر التّكنولوجي من إدخال آلات مستحدثة تطلّبت مهارات من نوع جديد، كانت كلّها عوامل أدّت في كثير من الأحيان إلى الاستغناء عن المهارات القديمة وإلى شكل من أشكال البطالة عرف «بالبطالة التّكنولوجيّة». وكانت هذه البطالة من أهمّ الظّواهر التي صاحبت ظهور الاتّجاه الصّناعي."[1] ومن هنا يبدو لنا أثر التّطوّر الصّناعي والتّغيّر التّكنولوجي العميق في تغيير نمط الحياة وطابعها الاجتماعي. ولا ريب في أنّ كلّ هذه التّغيّرات حدثت حينما عرفت المنظومة الاقتصاديّة الميكانيكيّة نقلة نوعيّة إلى ما يعرف بنظام الألينة الذي حوّل العامل إلى مستهلك وأحلّ محلّه الآلة. ومن هنا أصبح ينظر إلى النّظام الصّناعي "في قيامه على الألينة وتقسيم العمل، أنّه أدّى إلى الإقلال من أهمّيّة العنصر الإنساني في العمليّة الإنتاجيّة وأصبح العامل مجرّد أداة للآلة يخضع لأوامرها بعد أن فقد مهارته القديمة ومغزاها وأهمّيّتها في تسيير العمليّة الإنتاجيّة."[2] وبالتّالي أصبح العامل يمثّل "امتدادًا للآلة أو ترسًا فيها، يراقبها ويشرف على إدارتها فقط، على العكس من الحرفي الذي كانت الأداة امتدادًا له، تطيعه وتستجيب له ولأفكاره وعاداته ومهاراته، وتعمل وفقًا لطاقاته. إنّ الآلة الحديثة لم تعد تحترم تقليد وعادات العمل القديمة، ولم تعد تحترم فرديّة العامل أو ذاتيّته، بل صهرته وشكّلت منه هو الآخر آلة من نوع جديد، بما فرضته من روتين معيّن في أداء العمل، خاصّة وأنّها لا تحدّد له دوره في العمليّة الإنتاجيّة

[1] - السّيد عبد العاطي السّيد، مرجع سبق ذكره، ص: 46.

[2] - المرجع نفسه، ص: 47.

فحسب، بل وتحدّد الظّروف التي يخضع لها في قيامه بهذا الدّور، كما تحدّد له الطّريقة التي يجب أن يؤدّى بها هذا الدّور."[1]

***انعكاسات تغيّر نمط المعيشة في حياة الإنسان النّفسيّة:**

أمّا بخصوص الانعكاسات التي خلفها تغيّر نمط المعيشة في نفس الإنسان وسط العالم المعاصر الذي تحوّل إثره الفرد إلى "كائن صناعي ينهب الكرة الأرضيّة والحياة نفسها، هذا النّهب المسبّب في تلويث الهواء والماء بنفايات المصانع والأسلحة النّوويّة، التي تهدّد ديمومة الجنس البشري"[2]، فإنّنا نذكر مرض القلق النّفسي الذي يميّز إنسان حضارة اليوم عن إنسان الأمس، بحكم أنّ الفرد الذي يعيش في ظلّ المجتمعات المعاصرة أصبح، بتأثير التّكنولوجيا المتطوّرة، كائنًا "قلقًا على الرّغم من أنّه يعيش في زمن السّلم وفي جوّ التّقدّم الاقتصادي، لأنّ عالم التّكنولوجيا الذي يشكّل محيطه المباشر، والذي فصله عن عالم الطّبيعة الذي تطوّر فيه الإنسان أصلاً، فشل – أي عالم التّكنولوجيا – في توفير حاجات الإنسان الأساسيّة التي لم تتغيّر ولم تتبدّل. ومن نواحي كثيرة يشبه إنسان العصر «الحيوان البرّي» الذي يقضي حياته في حديقة الحيوانات، فالإنسان الآن كهذا الحيوان [...] يتوفّر له الغذاء الكافي والحماية الكافيّة من القسوة، ولكنّه يحرّم من المثيرات الطّبيعيّة الأساسيّة للعديد من وظائفه الجسديّة والفكريّة [...]، لقد أصبح إنسان غريب ومعزول عن أعماق ذاته [...] وبلا هدف له، حيوان تكيّفه الآلة [...] تخطّط له وتسيطر عليه لمصلحة منظّمات جماعيّة تخدم منافعها وأغراضها الخاصّة فقط."[3]

***انعكاسات تغيّر نمط المعيشة الصحيّة:**

علاوة عن ذلك، قد يكون مصدر القلق النّفسي يتمثّل في مجموعة الأمراض الجسميّة التي تخلّفها النّزعة الاستهلاكيّة أو ما يمكن أن نسمّيه بالاستهلاك العشوائي الذي لا

[1] - المرجع نفسه.

[2] - ف.بوريكو، ر.بورون، مرجع سبق ذكره، ص: 494.

[3] - رينيه دوبو، **إنسانيّة... الإنسان.(نقد علمي للحضارة العلميّة)**، ترجمة الدّكتور نبيل صبحي الطّويل، مؤسّسة الرّسالة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ط2، 1984، ص: 49.

ينطبق مع طبيعة المبادئ الدّينيّة ولا مع القوانين التّربويّة المسنّة من طرف المؤسّسات الثّقافيّة التي تنشط للحد من انتشار الأوبئة المضرّة بصحّة الإنسان. وقد تظهر هذه الأمراض المزمنة في ضغط الدّم وداء السّكّري والبدانة...الخ، التي تشير إلى حضور "انحراف ما عن حالة الأداء السّويّ، تكون له نتائج غير مرغوبة نظرًا لما يؤدّى إليه من إزعاج شخص أو ما ينجم عنه من آثار تتعلّق بالمكانة الصحيّة للإنسان في المستقبل."[1]

وفي هذا السّياق يمكن الجزم بأنّ للمرض معاني لا حصر لها تختلف باختلاف البنية الجسميّة والرّمز الدّمويّة من إنسان إلى آخر، فهو "حالة التّغيّر في الوظيفة أو الشّكل لعضو ما يكون الشّفاء منه صعب أو مستحيل بدون علاج. إنّه مجموعة انعكاسات ناجمة عن اضطراب في الجسم أو في أحد أجزائه تمثّل جوابًا ينبّه بحدوث المرض. كما يمثّل الحالة التي يحدث فيها خلل إمّا في النّاحيّة العقليّة أو العضويّة أو الاجتماعيّة للفرد شأنه إعاقة قدرة الفرد على مواجهة أقلّ الحاجات اللاّزمة لأداء وظائف مناسبة. وقد يكون المرض عامًا يصيب أكثر من عضو واحد أو يكون موضعيًّا تقتصر الإصابة على عضو واحد أو جزء من العضو."[2] والحقّ، أنّنا إن عمدنا لتطبيق مفهوم المرض على حالات مرضيّة معيّنة كالسّرطان والبدانة...الخ، فقد "يكون من اليسير حينئذ أن نشير إلى الظّرف المعنى الذي أدّى إلى ذلك الإزعاج الشّخصي، إشارة في حدود مصطلحات طبّيّة متخصّصة ومعلومة"[3]، نظرًا لكون أنّ بعض العلماء والأطبّاء يصنّفون الأمراض بشكل عام إلى الأنواع التّاليّة:

"عائليّة/ وهي تصيب عددًا من أفراد العائلة الواحدة: مثل السّكّري وارتفاع الضّغط. معدّيّة وسارية/ وهي تنتقل من شخص لآخر وقد تكون بكتيريّة مثل: الكوليرا أو فيروسيّة مثل: الحصبة أو فطريّة مثل: القراع. وغير معدّيّة/ وهي لا تنتقل من شخص لآخر. مثل القرحة المعدّيّة والسّرطان. ومهنيّة/ وهي خاصّة بظروف العمل في المناجم والمطابع مثل:

[1] - محمّد على محمّد وآخرون، **دراسات في علم الإجتماع الطّبّي**، دار المعرفة للطّبع والنّشر والتّوزيع، الإسكندريّة، 2004، ص: 149.

[2] - عبد المجيد الشّاعر وآخرون،**علم الإجتماع الطبّي**،دار اليازوري العلميّة للنّشر والتّوزيع،عمّان،ط1، 2000،ص: 76.

[3] - محمّد على محمّد وآخرون، مرجع سبق ذكره.

تغبّر الرّئة. واجتماعيّة/ مثل القلق."[1] وفي ما يخصّ المسبّبات النّوعيّة للمرض، نجد عامل التّغذيّة العشوائي يلعب دورًا سلبيًّا في إحداث خلل في صحّة الإنسان المعاصر، كاستهلاك كمّيّة كثيرة - أثناء تناول وجبة غذائيّة معيّنة - من "الكربوهيدرات والدّهون والبروتينات والمعادن والماء وهي تؤدّي إلى المرض سواء كانت قليلة أو كبيرة."[2]

***العوامل المساعدة على انتشار الأمراض المزمنة:**

على الرّغم من أنّ هذه الأمراض المنتشرة في عالمنا المعاصر "تفسّر في معظمها بأسباب ماديّة سواء كانت بيولوجيّة أو كيماويّة أو غيرها، فإنّ هناك عوامل اجتماعيّة ونفسيّة لها دورها المساعد إمّا في تدعيم الصّحة ومقاومة المرض أو في انتشار الأمراض وتوطّنها."[3] وبالتّالي، فإنّ الفرد الذي يفقد وعيه الاجتماعي فإنّ هذا يسبّب خطورة بالغة في انتشار العدوى، لأنّ "الجراثيم والميكروبات وغيرها من المسبّبات الماديّة للمرض تجد مرتعًا خاصًّا لها حيث الفقر المدقع والجوع المميت وحيث تدنّي مستوى الخدمات الاجتماعيّة وغياب المياه الصّالحة للشّرب وعدم وجود الصّرف الصّحي وغيرها."[4] والحال نفسه بالنّسبة لارتفاع مستوى المعيشة المسبّب في ظهور أمراض البدانة والضّغط الدّموي ومختلف الأزمات الخطيرة والمميتة التي قد تضع حدًّا لحياة الإنسان. ومن هنا يمكن الحكم بأنّ "إدراك خطورة العوامل الاجتماعيّة والبيئيّة والنّفسيّة والتّعامل معها وفق منظور تنموي عقلاني مرشد لا يقلّ أهمّيّة عن التّعامل مع مقاومة المرض على المستوى الفردي من حيث توفير التّحصين الطّبّي المناسب والدّواء الشّافي، فالتّنميّة الهادفة ونشر الوعي الصّحي وحماية البيئة وغيرها تعدّ من الوسائل النّاجحة في مكافحة المرض والحدّ

[1] - عبد المجيد الشّاعر وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص: 78.

[2] - نادية محمّد السيّد عمر، **علم الإجتماع الطبّي(المفهوم والمجالات)**، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، 1998، ص: 266.

[3] - عبد السّلام بشير الدويبي، **علم الإجتماع الطبّي**، دار الشّروق للنّشر والتّوزيع، عمّان، ط1، 2006، ص: 60.

[4] - المرجع نفسه، ص: 61.

من انتشاره في الأوساط الاجتماعيّة المختلفة، وهنا يلعب علم الاجتماع عمومًا وعلم الاجتماع الطّبّي وغيره من فروع علم الاجتماع على وجه الخصوص دوره المهمّ."[1]وفي الحقيقة، إنّ من بين وسائل الوقاية من الأمراض العصريّة المزمنة نذكر، في ذات الاتّجاه، فرع من فروع علم الاجتماع وهو علم الأوبئة، هذا بالإضافة إلى الدّور الفعّال الذي تلعبه الثّقافة الصّحيّة في الحدّ من هذه الأمراض المميتة.

***وسائل الوقاية والعلاج من الأمراض المزمنة:**

أ- قيمة علم الأوبئة وعلم الاجتماع الطبّي:

يمكن تحقيق الصّحّة للفرد والمجتمع بإجراءات صحيّة، وذلك بالتّركيز بشكل أساسي على علم الأوبئة الذي يدرس "ظهور وتوزيع الأمراض بين السّكّان، ويعدّ هذا الميدان من أهمّ ميادين علم الاجتماع الطبّي. ويفحص المتخصّصون في هذا الميدان مسألة ظهور الأمراض وتوزيعها وأصولها الاجتماعيّة، ويهتمّ بدراسة الأصول الاجتماعيّة للأمراض، مثل الاضطرابات العقليّة والسّرطان وأمراض القلب.[2]

و بالإضافة إلى ذلك، إنّ اتّحاد علم الاجتماع الطبّي "مع الخدمة الاجتماعيّة الطّبّيّة في هذا الصّدد، وبخاصة في عمليّات التّأهيل الجسمي والاجتماعي، بحيث يتمّ بمقتضاها تزويد الأشخاص الذين يتعذّر علاجهم تمامًا من بعض الأمراض أو أوجه النّقص نتيجة الإصابة بمرض معيّن، بأدوات أو وسائل لتعويض حالة النّقص هذه، وتغيير ظروف حياتهم، فيقلّ إلى حدّ كبير تأثير حالة النّقص لديهم في أسلوب حياتهم وقدرتهم على التّوافق. وعادة ما يحدث ذلك بتكوين بعض المهارات الجديدة لدى الأفراد مثل حالات الأذرع الصّناعيّة أو الأطراف الصّناعيّة عمومًا، والكلام الصّناعي عند المصابين بسرطان

1 - المرجع نفسه.

2 - محمّد على محمّد وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص: 36.

الحنجرة."[1]إذ يمكن القول من خلال هذا المنظور، أنّ علم الاجتماع الطبّي يلعب دورًا هامًّا في فتح "آفاق جديدة لهذا الميدان، وعلى ذلك يمكن الحكم بأنّ علم الاجتماع الطبّي يوجّه الاهتمام نحو تعريف النّاس بأنّ لديهم القدرة والوعي الكافي لإعادة تشكيل البيئة المحيطة بهم من أجل تحقيق أغراضهم وإشباع حاجاتهم، وإعطائهم الفرصة لحياة أكثر استقرارًا، متجنّبين كلّ المشكلات التي يمكن أن تعترض توافقهم الجسمي والنّفسي والاجتماعي."[2]

ب- الدّور المركزي لوظيفة الثّقافة الصّحيّة في الحدّ من انتشار الأمراض المزمنة:

تعرف الثّقافة بأنّها ذلك الكلّ المركّب من العادات والتّقاليد والمعتقدات والمعارف والقيم والفنون والأخلاق والعرف وأيّة معطيات أخرى طوّرها الإنسان من خلال عضويّته في الجماعة أو المجتمع وهي مكتسبة عبر عمليّات التّنشئة والتطبيع الاجتماعي وتنتقل من جيل إلى آخر. وفضلاً عن ذلك، ينظر العلماء الاجتماعيّون المعاصرون إلى الثّقافة بأنّها "الإطار المرجعي المعرفي للسّلوك لدى مجتمع من المجتمعات وتدخل في إطار ذلك كلّ السّلوكيّات التي تتطلّب الحياة الاجتماعيّة اليوميّة ذات العلاقة بالأكل والشّرب واللّباس والصّحّة والزّواج والطّلاق والتّعاون والتّنافس والصّراع وغيرها من العمليّات الاجتماعيّة والسّلوكيّات التي تؤطّرها الثّقافة"[3]، بحكم أنّها تلعب دورًا مركزيًّا في تحديد مفاهيم المرض ودلالاته وفي أساليب التّعامل معه وقايةً وعلاجًا، وتدلّ الكثير من المرجعيّات على أنّه كلّما كانت الثّقافة بدائيّة ومتخلّفة كلّما كانت أساليب تشخيص المرض وتحديد أسبابه وطرق التّعامل معه متخلّفة، الأمر الذي ينتج عنه تدنّي المستوى الصّحّي لأفراد المجتمع، فأساليب الوقاية من المرض وأساليب الغذاء والحمل والولادة والكساء وأساليب العمل والإنتاج كلّها مؤطرة بثقافة المجتمع من عادات وتقاليد وأعراف وقيم لها انعكاساتها على الوضع الصّحي للفرد والجماعة وتبرز من خلال الدّراسات الأنتروبولوجيّة للثّقافات المختلفة العديد من مضامين مفهوم المرض منها:

[1] - المرجع نفسه.

[2] - المرجع نفسه.

[3] - عبد السّلام بشير الدويبي، مرجع سبق ذكره، ص: 59.

الوصف العام للمرض، تحديد أعراض المرض ومظاهره، وتحديد أسباب المرض بشكل يرتبط بمدى التّقدّم العلمي والثّقافي."[1]

كما لا يفوتنا أن نشير إلى أنّ الثّقافة تلعب "دورًا هامًا في نشر الوعي الصّحي الوقائي والعلاجي، وعلى سبيل المثال تمنع الثّقافة في ليبيا النّساء من التّدخين الذي هو ضار بالصّحة دون ريب لأنّها تعتبر تدخين المرأة انحرافًا أخلاقيًّا."[2] ولا ريب في أنّ الدّراسات والأبحاث العلميّة على المجتمعات المختلفة قد بيّنت أنّ هناك علاقة وثيقة بين الثّقافة والصّحة والمرض وبيّنت كذلك أثر الثّقافة على برامج الخدمة الصّحيّة، ويمكن أن نستنتج أو نفهم ذلك من خلال تلقين الأطفال أصول النّظافة والعادات الصّحيّة السّليمة وتنشئتهم على السّلوك الصّحي السّليم التي يتوقّف عليها المستوى الصّحي في المجتمع[3] والذي يشكّل الوعي الصّحي الذي يعدّ من أهمّ العوامل المؤثّرة في برامج الخدمات الصّحيّة، ويعتبر المستوى التّعليمي والثّقافي أحد أهمّ العوامل الهامّة التي تلعب دورًا أساسيًّا في توافر الوعي الصّحي لدى الفرد، فالأفراد الأكثر تعليمًا يتمتّعون بالوعي الصّحي ويكونون أكثر قدرة على فهم أسباب المرض وطرق تنفيذ علاجه.[4]

ومجمل القول، إنّ الهدف الرّئيسي الذي نسعى إليه من خلال مداخلتنا هذه يتلخّص في إماطة اللّثام عن الحقيقة التي مؤدّاها أنّ التّغيّر الطّارئ في نمط المعيشة المعاصر قد انعكس بشكل إيجابي على إنسان الحضارة المعاصرة من جهة، وبكيفيّة سلبيّة من جهة أخرى. لهذا انصبّ اهتمامنا على تبيان أهمّيّة علم الاجتماع الطّبي وعلم الأوبئة، والدّور المركزي الذي تلعبه الثّقافة الصّحيّة في تعزيز الصّحة وتقليل معدّلات الأمراض والحدّ من مضاعفاتها بتزويد الأفراد والمجتمع بالمعلومات والمعرفة الصّحيّة وتبنّيهم سلوكات صحّيّة سليمة تمكّنهم من مراقبة صحّتهم بالحدّ من الاستهلاك العشوائي اللاّإنساني

1 - المرجع نفسه.

2 - المرجع نفسه، ص: 60.

3 - عبد المجيد الشّاعر وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص: 103.

4 - عبد المجيد الشّاعر وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص: 103.

الذي تخلقه الأجهزة الصّناعيّة المعاصرة وتربطه بالإنسان ربطًا ليبيديًّا للدّرجة الذي يكتسي فيها طابعًا سحريًّا يجعل منه محورًا تأسيسيًّا للوجود الإنساني.